«الربيع العربي»: قراءة في القراءات

□ زياد حافظ

مُحيّرة بالفعل حالةُ أكثر المثقفين العرب! فبدلاً من القراءات الموضوعيّة الهادئة للتحوّلات الهائلة التي يشهدها عددٌ من الأقطار العربيّة، نطالع قراءاتٍ رغبويّةً تشوبها أحيانًا النظرةُ الأحاديّة. ثم إنّ معظم هؤلاء المثقفين فوجئوا بما حدث، ومن ثم تمْكن إعادةُ النظر في أهليّتهم للتكلّم على هذه التحوّلات، لأنهم لم يروْها قادمةً على الأقلّ في المنظور القريب إنْ لم يكن الطويل.

قبل الانتفاضات العربيّة أفرطتْ تحليلاتُ أكثر المثقفين العرب في التشاؤم واليأس من حالة أمّتنا. أما اليوم، فهناك سوءُ تقدير لحجم التغييرات التي حصلتْ وغابت عن انتباه الكثيرين قوةُ الدفع الجماهيريّ لهذه الأمّة، فتحوّل إلى «واقعيّ» ونبَذ العروبةَ «ولغتَها الخشبيّة،» أو التحق بخطابٍ حداثويّ أو حريّاتيّ بديلاً من خطاب عربيّ نهضويّ مقاومٍ للصهيونيّة والاستعمار والاستبداد والتبعيّة والتجزئة

❖ ❖ ❖

محورُ مقالنا هنا قراءةٌ سريعةٌ في القراءات المتعدّدة التي شهدناها في الفضائيّات العربيّة والدوريّات والندوات عن «الربيع العربيّ.» وصادف أنْ شاركنا في إحدى هذه الندوات بعيْد رحيل بن عليّ ومبارك، ففوجئنا بالأحكام الجارفة المتحكّمة في عقول العديد من المثقّفين العرب.

لكنْ قبل أن نستعرض بعضًا من هذه الأحكام نتساءل: لماذا لا يعطي المثقفون العرب الوقتَ الكافي ليأخذ الحراكُ مداه قبل أن يَحْكموا عليه؟ الثورة الفرنسيّة دامت أربع سنوات قبل أن تهدأ، واستغرقتْ ما يقارب قرنًا لتطبيق مبادئها وفي هذا السياق يُروى أنّ وفدًا عربيّاً زار ماو تسي تونغ وسأله عن الثورة الفرنسيّة، فأجاب أنه ما زال من المبكّر الحكم وإنْ مضى عليها ما يوازي قرنين!

❖ ❖ ❖

يَرفض بعضُ المثقفين نعتَ التحرّك الجماهيريّ بـ «الثورة» لأنه لم يُعلنْ عن نظريّةٍ متكاملة، وعن قيادةٍ واضحةِ الملامح، وعن برنامجٍ عمليّ في المكان والزمان. لكنْ إذا كان صحيحًا أنّ الحزب في الماضي كانَ مصدرَ المعلومة السياسيّة والموقف السياسيّ، والمعبّئَ الجماهيريّ، ومنفّذَ الحراك السياسيّ، فإنّ المعلومة والموقف ودعواتِ التعبئة باتت اليوم تصل إلى شرائح المجتمع عبر أدوات التواصل الحديثة، فتراجعت الأحزابُ في الدول الغربيّة وحتى العربيّة. كما أنّ العلاقات الشبكيّة تستطيع أن تجنّد، عبر القواسم المشتركة، أكبرَ عددٍ ممكنٍ من الذين يتّفقون على موقف معيّن من دون الالتزام بباقي المواقف التي يمكن أن يطلقها الحزب. لذلك يمكن أن نتصوّر حراكًا جماهيريّاً لا يقوده تنظيمٌ واحد أو جبهةٌ واحدة، بل شبكةٌ من العلاقات.

❖ ❖ ❖

من الأحكام المتسرّعة نسبةُ بطء وتيرة التغيير في مصر إلى «المؤامرة » كلّنا يريد إلغاءَ كامب ديڤيد وقطعَ العلاقات مع الكيان الصهيونيّ، غير أنّ «البطء» لا يعني بالضرورة وجودَ مؤامرة. إنّ منطق الدولة يختلف عن منطق الثورة، وما نشهده اليوم هو تفريغٌ ممنهجٌ لمضمون اتفاقيّة كامب ديڤيد من دون إلغائها كما صدر عن الحكومة المصريّة الجديدة العديدُ من المواقف التي ردعتْ رعونة الكيان في ما يتعلّق بغزّة. وعلينا ألا ننسى أنّ المجلس العسكريّ والحكومة الحاليّة حالة مؤقّتة. ولا دليل على وجود مؤامرة داخل القوات المسلّحة التي ما زالت عقيدتُها القتاليّة تقول إنّ العدوّ هو الكيانُ الصهيونيّ. أما في ما يتعلّق بالقضايا الداخليّة، فتفكيكُ أواصر النظام السابق لا يحصل بفرمان ودفعةٍ واحدة، بل سيكون ذلك مهمّة الحكومة التي ستنبثق عن الانتخابات القادمة وعن هويّة الرئيس المرتقب كما أنّ المشهد السياسيّ الداخليّ معقّد ومركّب: فالإخوان المسلمون ليسوا حالةً واحدة، والقوى السياسيّة الأخرى ما زالت في حال إعادة تشكيل. ونلفت النظر إلى أنّ إمكانية النزول إلى الشارع من جديد في تونس ومصر ما زالت قائمة المطلوب طول البال!

❖ ❖ ❖

ومن الأحكام المتسرّعة أنّ هذا الحراك الجماهيريّ هو مِن صُنع المخابرات الغربيّة والعربيّة، وكأنّ الغرب «استاء» من أداء الحكّام العرب الذين حوّلوا أقطارَهم إلى بؤرٍ متخلّفةٍ تابعةٍ للمشيئة الغربيّة؛ أو كأنّ الكيان الصهيونيّ أراد أن يتخلّى عن حليفه الإستراتيجيّ ممثّلاً في شخص حسني مبارك! صحيح أنّ دول الغرب أرادت الالتفافَ على الحراك الجماهيريّ حمايةً لمصالحها المهدّدة؛ ومن الطبيعيّ أن يحاول الغربُ وأدواتُه إجهاضَ هذا الحراك من خلال تبنّي شعارات الحرّيّة والديمقراطيّة، عبر أدواته الموفدين إلى الفضائيّات العربيّة، وعبر مجالس انتقاليّة وخارجيّة مرحّبةٍ بتدخّلات الحلف الأطلسيّ في ليبيا أو

نرى إجحافًا في نعت ثوّار ليبيا بثّوار الناتو!

سوريا. ولكنّ هذا لا يعني «خلطَ» الثورة المضادّة بالحراك الجماهيريّ الصحيح.

وفي هذا الصدد نرى إجحافًا في نعت ثوّار ليبيا بثّوار الناتو! صحيح أنّ هناك قوًى في ليبيا تحاول خطفَ الانتفاضة ضدّ القذّافي لمصلحة التحالف مع الأطلسي، ولكنّ هناك أيضًا وطنيّين ليبيّين يرفضون الوصاية الأطلسيّة والاستبداد القذّافي معًا، ولا يجوز أن نخلط بينهم وبين الأوائل

وبالمثل، فإنّ الحراك في سوريا اليوم شعبيّ ومشروع، ولكنّ هناك من يريد إجهاضَه بالتبعيّة الخارجيّة. وما يقوم به بعضُ الإعلاميين والفضائيّات العربيّة، من تضخيم الأحداث واختلاق القلاقل، لا يخدم في آخر المطاف ذلك الحراكَ، بل يصبّ في أجندات الأطلسيّ والكيان الصهيونيّ. إنّ هدف الغرب وأدواته هو تمزيق سوريا إلى كياناتٍ متقاتلةٍ توفّر الحماية للكيان الصهيونيّ ويردّد أحدُ المسؤولين في الخارجيّة الأميركيّة في أوساطه أنّ الولايات المتحدة لن تتوقّف عن التدخّل في الشؤون السوريّة إلى أن تصل الحصيلةُ إلى مائة ألف قتيل من الواضح أنّ الولايات المتحدة تشجّع وتموّل حدوثَ حرب أهليّة في سوريا، وهذا ما لا يريده المعارضون الوطنيون السوريون بالتأكيد. إنّ الإصلاح آتٍ وإنْ ببطء؛ فلا داعي لخراب الوطن في سبيل الاستعجال

❖ ❖ ❖

من الأحكام المتسرّعة أيضًا أنّ النظام لم يتغيّر في تونس ومصر، وأنّ جلّ ما حصل هو تغييرُ رأس النظام وبقاءُ رموزه.

هذه قراءةٌ غيرُ دقيقة هي الأخرى، ومبسِّطة للواقع

أولاً، لا بدّ من التركيز على أهميّة خلع بن علي ومبارك، إذ يلعب الرئيسان دورًا بالغَ الأهمية في البلدين.

ثانيًا، ارتكز النظامُ في مصر على التحالف بين السلطة والأمن ورجال الأعمال على حساب الجيش (الركيزة الأساسيّة لثورة ٢٣ يوليو). وعليه، فإنّ سقوط ذلك التحالف، وعودةَ الجيش إلى الواجهة، يشكّلان في رأينا سقوطًا لنظام مبارك. ولا يجوز أن نعتبر أنّ الأمور استقرّت في مصر لمصلحة الجيش، أو لتحالفٍ جديدٍ بينه وبين الإخوان المسلمين؛ فهناك انتخاباتٌ قادمةٌ ستُظهر الخارطة السياسيّة الجديدة للمرحلة القادمة وفي تونس أيضًا لم تستقرّ الأوضاعُ بعد، والبعض يعتبر أنّ الجيش هو صاحبُ تنحّي بن علي عن الحكم أصلاً. أما القول بأنّ العديد من ضبّاط الجيش في تونس ومصر تلقّوْا تدريبًا في الولايات المتحدة فلا يعني أنّهم يريدون مصلحةَ الولايات المتحدة قبل مصلحة بلادهم أو على حسابها؛ إذ ليس كلّ من تدرّب فترةً من الزمن في الولايات المتحدة أصبح من عملائها أو من المعجبين بسياساتها في المنطقة.

❖ ❖ ❖

ومن الأحكام المتسرعة أنّ «الشباب» الذين قاموا بالحراك الجماهيريّ لا وعي قوميّاً لديهم، بل اكتفوْا بمقاربة الوضع الداخليّ لبلدهم ويستند أصحابُ هذا الحكم إلى عدم وجود شعارات مرفوعة عن فلسطين، وغياب أيّ تعاطف مع ما يجري في مختلف الأقطار العربيّة.

هذه القراءة غير صحيحة هي الأخرى أولاً، لأننا وجدنا يافطاتٍ ترفع شعاراتٍ مندّدةً بالكيان الصهيونيّ، وإنْ لم تطغَ على الشعارات المرفوعة الأخرى. ثانيًا، لم تمضِ أيّامٌ على الحراك المصريّ حتى نُسفت الأنابيبُ التي كانت مصرُ تزوّد الغازَ بها الكيانَ الصهيونيّ والأردن؛ وقد حصل ذلك عدّة مرات. ثالثًا، إنّ اقتحام سفارة الكيان في مصر أكبرُ دليل على ترابط الحراك الداخليّ بالقضيّة القوميّة؛ ومن يتابعْ تداعيات ذلك الحادث في الصحافة العبريّة والأميركيّة يَرَ مدى الهلع الذي أصاب حكومةَ الكيان والإدارة الأميركيّة. وأخيرًا، فإنّ انتقال «عدوى» الثورة إلى العديد من الأقطار العربيّة يدلّ بوضوح على وجود أمّةٍ واحدة تتحرّك لأسباب مماثلة وترفع شعاراتٍ متشابهةً.

❖ ❖ ❖

حكم آخر غير دقيق يفيد بأنّ المستفيد الأول من كلّ ذلك هو الحركات الإسلاميّة، وأنّ «الظلاميّة» ستعمّ تلك الدول.

ولكنْ إذا كان صحيحًا أنّ تلك الحركات أكثرُ تنظيمًا وتماسكًا من الحركات الأخرى، فذلك لا يعني أنّ الدول العربيّة ستتحوّل إلى إماراتٍ إسلاميّة أو إلى مشاريع إمارات تمهيدًا لحكم إسلاميّ شامل ومطلق ولكنْ لو عنى ذلك فعلاً، فأين حرصُ أولئك المثقفين على «إرادة الجماهير»؟ أليست الجماهير هي التي قامت بالحراك وهدمت الهياكلَ وخلعت الفراعنة؟ أليست هناك انتخاباتٌ مقرّرة يقول الشعبُ فيها كلمتَه؟ ألا يحقّ للإسلاميين الوصولُ إلى الحكم؟ ومن قال إنّ أداءهم سيكون أسوأ من الحكم «العَلماني»؟ والأهمّ من كلّ ذلك، لماذا قلّة الثقة بالجماهير؟ فالأخيرة برهنتْ على وعي وقدرة تعبويّة وتنظيميّة وتنفيذيّة، وما زالت معبّأة حتى هذه اللحظة لتصحيح مسارات الحراك

❖ ❖ ❖

في نهاية المطاف لا بدّ من استخلاص بعض النتائج من تلك القراءات المتعدّدة للحراك الجماهيريّ.

أولاً، من غير المفيد والمنطقيّ إطلاق أحكام جارفة على حراك ما زال قائمًا.

ثانيًا، لا يجوز الانتقالُ من إفراط في التشاؤم قبل الحراك إلى إفراطٍ في التفاؤل بعده، وبالتالي الوقوع في مطبّات الإحباط عند عدم تحقيق الرغبات المتعددة فورًا.

ثالثًا، إذا كانت هناك حالة واحدة عند جماهير هذه الأمة فهذا لا يعني أنّ ما يصلح في قُطْر سيصلح في كافة الأقطار؛ فلكلّ قطر خصوصيّتُه، وأهلُ الميدان أكثر معرفةً بشؤونهم، وواجبُنا كمثقفين هو الثقة بهم: فهذه الجماهير أنجزتْ ما أخفقت النخبُ المثقفةُ في إنجازه.

بيروت

زياد حافظ

أمين عامّ المنتدى القوميّ العربيّ